العمارة الدينية العباسية في سوريا "انموذجا المسجد الجامع في الرافقة"

إعداد: علي رمزي زعيتر
الرتبة العلمية: طالب ماجستير في الاثار الاسلامية
إعداد: أ.م.د هدى العبسي
الرتبة العلمية: استاذة في تاريخ العرب والمسلمين المساعد
قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ادلب

ملخص

إن لبلاد الرافدين تقاليد في العمارة يفرضها الإقليم، ومواد البناء التقليدية، وكان لهذين العاملين الأثر الأكبر في طبع العمائر العباسية بطابع يميزها عن العمائر الاموية، قد تجسد ذلك في مدينة الرافقة حيث بدأ الخليفة "أبو جعفر المنصور" في عام **155هـ/ 781م** ببناء عاصمة صيفية للدولة العباسية بالقرب من "الرقة"، سميت "الرافقة"، وقد كلف أبو جعفر ابنه المهدى لبنائها.

كما اتخذها هارون الرشيد" عاصمة ومقراً لحكمه بين عامي **796 – 808م**، وكان ازدهار الرقّة في عصر الرشيد، امتداداً للازدهار الذي أسّسه المنصور وللاستقرار السياسي الذي رافقها خلال حكم المهدي والهادي، ولقد اتخذ الرشيد من الرقّة مصيفاً له، وأمر بإنشاء كل ما يلزم فيها من وسائل الراحة.

إنَّ جامع "المنصور" أو الجامع العتيق، الذي يجسد العمارة الدينية في سوريا، يقع في قلب "الرقة" في النصف الشمالي من الرافعة، إلى الشمال الغربي من باب "بغداد"، ويعد المدرسة المعمارية الأولى في العصر الذهبي العباسي، بدءاً من منتصف القرن الثاني الهجري، وقد أخذ طراز بنائه مسجد "نابين" في فارس، ومسجد "أحمد بن طولون" في مصر، ومسجد "القيروان" في "تونس"، إن ما تبقى من المسجد ما هو إلا جزء يسير من المسقط الحقيقي للمسجد فقد بقي منه السور الخارجي وواجهة الحرم والمئذنة وأطلال بعض العضاضات.

يعتبر المسجد من المباني العباسية التي تمَّ بناؤها في الفترة العباسية الأولى، فهي تخضع لسمات العمارة العباسية، حيث أن المساجد كانت تبنى بشكل قلاع أو حصون، أي أنها تبنى منعزلة، وفيه تجتمع خصائص المسجد الرافدي (الكوفة) والمسجد الشامي (الأموي)، فالأبراج نصف الدائرية في زواياه تجعله مشابهاً لمسجد الكوفة، أما حرمه المؤلف من ثلاث مجازات (بلاطات)، فهو مشابه لطراز جامع دمشق.

أما واجهة الحرم المطلة على الصحن فهي عبارة عن قنطرة تتألف من أحد عشر عقد مدبباً أبعادها الوسطية 3.56م عرضاً، و10.5م ارتفاعاً، وهو محاط بجدارين من اللبن المغلف بالآجرّ المدعم بأبراج نصف دائرية، تتألف هذه القنطرة من عدد من العقود العباسية المتباينة في الأشكال ومنها العقود التالية: العقد نصف الدائري حدوة الفرس، والعقد العباسي رباعي المركز، والعقد ثلاثي الفصوص، وجميع هذه العقود من الخارج لها العقد المدبب العباسي نفسه، اما من الداخل فكل عقد يختلق في الشكل عن المجاورة له.

أما سور المسجد الجامع في الرافقة فإنَّه بالرغم من الفجوات في الجدران وحالتها المتهدمة فإنّه يحتوي على برج في كل زاوية، وأربعة أبراج أخرى في الجانب، أي ما مجموعه **20** برجا، وإنَّ سماكة الأبراج كانت حوالي **1.7 م**، وسماكة السور فيه /**1،70/م**.

كما تعتبر مئذنة المسجد الجامع في الرافقة إحدى المآذن الطينية التي تنتشر في منطقة الفرات الأوسط في سورية، فهناك واحدة في بالس / مسكنة، وثانية في منطقة أبي هريرة، وثالثة في قلعة جعبر، ورابعة في مدينة الرافقة / الرقة، وخامسة في دير الزور.

إن مئذنة المسجد الجامع الباقية، فهي اسطوانة الشكل، تقع في باحته الداخلية، وتشبه إلى حد كبير مئذنة أبي هريرة ومئذنة قلعة جعبر، أحيطت المئذنة في أعلاها بشريط نباتي حجري يتضمن كتابات تشير إلى أن بانيها هو نور الدين محمود، وعليها ألقابه، بنيت المئذنة بالآجر الذي يبلغ طوله نحو **23.5 سم**، أما ارتفاعها، فيبلغ نحو عشرين مترا، ونصبت فوق قاعدة حجرية كلسية منحوتة مربعة الشكل.

ان خصائص العمارة الدينية في مدينة الرافقة المتمثلة بالمسجد الجامع، متأثرة بالعمارة الأموية من جهة ومثال على ذلك السقوف الجملونية للمسجد الجامع، ومتأثرة بالعمارة الساسانية الفارسية من جهة أخرى لا سيما في التحصين والأساليب الدفاعية، بالإضافة الى

السور المزود بالأبراج الدفاعية، لذلك تعتبر العمارة العباسية في الرافقة مزيجا من الحضارة الأموية في دمشق والحضارة الساسانية في الشرق وذلك بسبب موقعا المتوسط بين الحضارتين.

1- المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد أفضل الرسل وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد:

يعد الموروث المعماري من أهم المقومات الأساسية التي تشير إلى أصالة حضارة معينة، ويعد هذا الموروث المؤشر الحضاري لما وصلت له أمة معينة ليكون شاهداً على مدى تطورها، فغالباً ما تكون هذه المباني المعمارية الموروثة تعبر عن الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي لتلك الأمة، ففي البداية لوحظ أن اهتمام الانسان كان في المسكن وايجاد مأوى له وملجأ لا أكثر، ولكن بعد عملية الاستقرار عبر التاريخ أصبح الانسان يهتم بالنواحي الجمالية لمسكنه.[1]

الهدف من البحث هو تسليط الضوء على العمارة الدينية في سوريا خلال العصر العباسي الاول, والذي تراجع فيه الاهتمام بسوريا عموما والعمارة الدينية خصوصا بعد انتقال عاصمة المسلمين من دمشق الى بغداد, وقد حاول العباسيون تشييد منشأ إسلامي يدل على عظمة هذه الحضارة، فأخذت مدينة بغداد حظها الوافر في هذا المجال بينما اقتصر الاهتمام بسوريا على مناطق شرق الفرات لقربها من العراق والحدود البيزنطية وكانت من أهم الإنجازات المعمارية في الرافقة عمارة المساجد, كمسجد الجامع في الرافقة والذي يعود تاريخ بناؤه الى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور لأهميتها البالغة في حياة المجتمع ودورها المتميز خلال العصور الاسلامية ولاسيما العصر العباسي.[2]

اعتمد البحث على بعض المصادر ومن أهمها: تاريخ الطبري، وابن الأثيرِ، واليَعْقُوبِيُّ، كما اعتمد على بعض المراجع العلمية التي تخدم هذا البحث، وإن كانت كثيرة، ولكن بسبب الظروف الراهنة كان من الصعب جدا الحصول عليها، وخاصة الحوليات الأثرية وجمعية

العاديات التي تذكر مواسم التنقيب التي تمت في كل عام بعامه، ومن أهم المراجع التي اعتمدت عليها: موسوعة العمارة والأثار، العمارة العربية الإسلامية، سوريا نبع الحضارة.[3]

كان طبيعيا بعد انتصار العباسيون على الأمويين بمؤازرة العنصر الفارسي وانتقال مركز الدولة من الشام إلى العراق، أن تظهر التأثيرات الفارسية والرافدية على الفنون وعلى العمارة العربية الإسلامية، كما ظهرت في العادات والتقاليد وأنظمة الحكم وبظهور هذه التأثيرات أخذ الفن العربي الإسلامي اتجاهات جديدة، واختلفت مظاهره وعناصره عما كانت عليه في العصر الأموي.[4]

2- موقع الرافقة:

تقع مدينة الرافقة على الضفة اليسرى لنهرِ الفراتِ، عند التقائه بنهرِ البليخِ، مما جعلَ موقعَها يتميز بالخصب ووفرة المياه بين حلب ودير الزور، التي تبوأت دوراً استراتيجياً وتجارياً مهماً عبر التاريخ كجسر متقدم على حدود العالم القديم، وأصبحت مركزاً مهماً من المراكز الحضارية العربية الإسلامية في أوج انتشار الإسلام[5].

الرقة مفرد جمعها رِقاق، وهي غضار الفيض الذي ينحسر عنه مفيض نهر الفرات فيجف تحت الشمس متشققاً إلى رقاق، وتعتبرُ الرَّقَةُ من أهمّ المحطاتِ التجاريةِ وأكبرِ مراكزِ المحاصيلِ وتبادلِ البضائعِ[6]، بنى المنصور مدينة الرافقة وأَتَمَّها المَهْديُّ ونَزَلها الرَّشِيدُ، وسرعان ما اندمجت مع الرقة، فهي بلدٌ واحد لا بَلَدانِ كما يُعتقد من تَعْداد الاسمَ[7]، يسكنها أخلاط مضر[8].

تمتاز مدينة الرقة بأنها تضم عدداً من أهم الآثار الاسلامية، حيث تمتاز بأنها تضم مجموعة من الآثار العباسية، وهي مدورة كهيئة الطيلسان، ولها ربض في جهتها الشرقية عليه سور، ولها جامعان: جامع في الرافقة وجامع في الربض، والسور الخارج آخذ من الفرات إلى الشمال، وأسواقها في الربض وبساتينها شرقاً إلى الفرات.[9]

3- تاريخها:

عرفت مدينة الرقة في التاريخ القديم "توتول" موقع "تل البيعة" الحالي، والتي ورد اسمها بالمصادر التاريخية منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وعاصرت مملكة يمخاض (حلب) وماري واستمرت بازدهارها حتى عهد حمورابي ملك بابل.[10]

إنَّ أهميةَ موقعِ الرقةِ تطلَّبَ تأسيسَ منشآتٍ معماريةٍ شكّلَت نواةَ قريةٍ قديمةٍ لفتتْ نظـرَ الإسكندر المكدوني، وينسب إلى المكدونيين تأسيس مدينة نيقوفوريوم في موقع " الرقـة السمراء "، ثم تغيَّرَ اسمُها عندما أسّسَ سلوقس الثاني كالينكوس في عام **244 ق.م**، مدينة مكان الرقة البيضاء (في حي المأمون حاليا)، عُرِفَتْ باسمِ كالينيكوم، وبعض المؤرخين يردها إلى الفيلسوف اليوناني "كالينيكوس" الذي يعتقد أنه دفن فيها، وفي العصر البيزنطي كانت المدينة مركزاً اقتصادياً وعسكرياً هاماً، وقد وردَ اسْمُها في كتـابات سريانية وبيزنطية كمركز تجاري هام على طرق القوافل التجارية وبخاصة طريق الحرير؛ وفي عهد الإمبراطور البيزنطيّ ليون **(457–474) م** عُرِفَتْ باسم ليونتوبوليس.[11]

فتحها الجيش الإسلامي، بقيادة عياض بن غنم من الحكم البيزنطي في عام **639م/ 17هـ**، وكان اسمها آنذاك "الرقة" ومن معانيها في اللغة الصخرة المسطَّحة، وفي العصر الأموي تابعت مدينـة الرقة ازدهارها فبنى فيها الخليفة هشـام بن عبد الملك **(724–743 م 105–125هـ)** سوقاً تجارياً وشق قنواتٍ وتُرَعاً للمياه (الهني والمري) فانتشرت زراعة الكروم والأشجار المثمرة على ضفاف الفراتِ، كما بنى مُقابلَ الرقةِ على الضفةِ الغربية قصرين.[12]

بدأ الخليفة "أبو جعفر المنصور" في عام **155هـ/ 772م** ببناء عاصمة صيفية للدولة العباسية بالقرب من "الرقة"، سميت "الرافقة"، حيث كلف أبو جعفر ابنه المهدى لبناء الرافقة، وهندسها له أدهم بن **محرز**[13]، وقامت إلى جانب الرقّة البيزنطية، الأموية على مسافة "**300** " ذراع إلى الشمال الغربي بنيت على شاكل مخطط مدينة بغداد في أبوابها، وأسوارها، وفصولها، ومساحتها، ورحابها، لكنها أصغر[14]، وفي استعمال مادة البناء نفسها وهي الطابوق[15]، إلاّ أن الضلع الجنوبي المحاذي لنهر الفرات بني مستقيماً، مما جعل السور يظهر على شكل نعل فرس، وهو يحاكي سور بغداد الدائري، وللسور أربعة أبواب، أشهرها باب بغداد، وهو تحفة معمارية.[16]

ان الخليفة العباسي المنصور حينما اعتزم بناء بغداد واختار موقعها، قال: لتكونن أعمر مدينة في الأرض، ثم لأبنين بعدها أربع مدن لا تخرب واحدة منهن أبداً، فبنى " الرافقة " ولم يسمها، وبنى ملطية، وبنى المصيصة، وبنى المنصورة بالسند[17] ، كذلك لما أراد أن يبني الرافقة بأرض الفرات امتنع أهل الرقة وأرادوا محاربته ، خوفا من تعطل أسواقهم وارزاقهم وتضيق منازلهم، فهمَّ بمحاربتهم، فبناها على بناء مدينة بغداد سوى السور وأبواب الحديد وخندق.[18]

لقد كان من بين الحوافز التي حثت بالخليفة المنصور لبناء الرافقة، وغيرها ذلك البرنامج الجديد الذي أوجدته ضرورة إقامة المدن المحصنة، إذ إن هذا الخليفة أحس بأن الأمويين ارتكبوا خطأ فاحشاً، لأنهم لم يتخذوا لأنفسهم مدينةً محصنة تحصيناً قوياً تستطيع أن تقاوم الأعداء لأطول مدة ممكنة، ورغب في إصلاح هذا الخطأ ببناء بغداد، ثم ولنفس السبب بنى " الرافقة " وهي أشبه ما تكون بقلعة قوية بالقرب من الرقّة عند مجاري الفرات العليا، ووضع فيها حامية من الجند الخرسانيين، وهو الذي دعم حصون الكوفة، والبصيرة، بالإضافة الى أهمية موقع الرافقة عسكريا فهي تعتبر سلة غذائية للدولة الإسلامية التي يمكن ان تستفيد من المحاصيل التي تنتجها سهول الجزيرة على ضفاف الفرات.[19]

اتخذها هارون الرشيد" عاصمة ومقرا لحكمه بين عامي **796 – 808م**، وكان ازدهار الرقّة في عصر الرشيد، امتداداً للازدهار الذي أسّسه المنصور وللاستقرار السياسي الذي رافقها خلال حكم المهدي والهادي، ولقد اتخذ الرشيد من الرقّة مصيفاً له، وأمر بإنشاء كل ما يلزم فيها من وسائل الراحة، والترف، كميادين سباق الخيل، وملاعب الصولجان، وحقول الصيد، وموانئ السفن، والحراقات، والمتنزهات الواسعة، والحدائق المزهرة على ضفتي الفرات، والرحاب الفسيحة، فأصبحت من أجمل مصائف الدنيا[20]، كما توسعت المدينة شرقاً وشمالاً وازدهرت وأصبحت المدينة مركزاً علمياً وثقافياً هاماً، ولعل أبرز صورة عن الرقة في عهد الرشيد تتجسد في ان الأشجار كانت تظلل موكبه طيلة الطريق بين الرقة وبغداد حتى لا تصل الشمس الى مركَبتهِ.[21]

كانت مدينة الرافقة مركزاً لإعداد الجيوش لقتال البيزنطيين، ومنها تنطلق غزواته الصائفة لحرب الروم، ولقد اتسعت، ولم تعد بلدانها القديمة البيضاء، والسوداء، والرافقة، وواسط كافية لاستيعاب سكانها فشيّد الرشيد بالرقّة " الوسطى " وهي توسعة الرافقة، واتصال الرقتين، فشملت جميع المنطقة السهلية الواقعة عند ملتقى الفرات مع البليخ بما فيها من روابٍ، على هذا السهل، كما أنَّ نهر الفرات بتغيير مجراه قد ذهب بجميع معالم المدينة الواقعة في الجهة الشامية المقابلة، والمعروفة " بواسطة الرقّة، أو رقّة واسط" ومع ذلك فقد قدرت مساحة الأنقاض الباقية في مدينة الرقّة الجزرية بخمسين كيلو متراً مربعاً.[22]

إنَّ الخليفة العباسي هارون الرشيد جعل من الرقّة عاصمة دائمة له سنة (**180 هـ /796 م)**، وشيّد فيها قصر الخلافة المعروف بـ " قصر السلام " وعدّة قصور، ومنها: " قصر الأبيض " بحيث يمكن ألا يعود إلى بغداد إلا لضرورة، كما اتخذ الأمراء، والوزراء، والقواد، ومنهم البرامكة قصوراً لهم بالرقّة يقيمون فيها إلى جانب الخليفة، وإذا تم متابعة سيرة الرشيد في أسفاره، وحجّه، وغزوه، لوجد أن المدة التي أقامها طوال خلافته في الرقّة أطول من المدة التي كان يقيمها في بغداد.[23]

كان مقر بلاط الرشيد " قصر الخلد" حين يكون في بغداد، و" قصر السلام " حين يقيم في الرقّة، وكلا القصرين من أفخم قصور الدنيا في ذلك العهد، وأكبرها سعةً وجمالاً.[24]

لقد كان عصر الرشيد ذروة الازدهار في تاريخ الدولة الإسلامية التي كانت الرقّة فيها عاصمة دائمة مدة **13** سنة (من سنة **180 هـ /796 م**) . **(193 هـ /808 م)** وعلى هذا نستطيع أن نقف على مدى الازدهار الذي كانت تتمتع به الرقّة في هذه الحقبة حيث بلغت الرقّة أوج عصرها الذهبي، إذ كان الرشيد يقول: (الدنيا أربعة منازل، دمشق، والرقّة، والرّي، وسمرقند).

تكاد تكون الأبنية والمخلفات الاثرية في الرافقة النموذج الفريد الذي أبقت عليه عاديات الزمن من آثار عصر العباسيين في عهدي المنصور والرشيد، فهي ليست آثاراً

فنية وحضارية فحسب، ولكنها آثار رافقت أمجاداً عسكرية لأمتنا العربية الاسلامية، وهناك ظاهرة تنفرد بها آثار الرقّة، بالنسبة للآثار الأخرى في بلاد الشام، ومصر، والمغرب، كون تلك الآثار هي المحطة الأولى التي انطلقت منها الأساليب الفنية، المعمارية، والروائع الخزفية، والزجاجية المصنوعة في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وعنها انتقلت الفنون العباسية إلى مصر، والمغرب فيما بعد، واستمرَّ ازدهارها حتى يوم خرابها على يد هولاكو **1258م.**[25]

في عام **1926**، كان عالم الآثار الألماني أولبرايت أول من مسح المنطقة أثرياً، وقام العالم مالوان عام **1938** بأسبار ودراسات أثرية كشفت معلومات علمية دقيقة عن تاريخ الرقة.

- **المسجد الجامع في الرقة/ الرافقة (العتيق):**

إنَّ جامع "المنصور" أو الجامع العتيق، يقع في قلب "الرقة" القديمة، يقع الجامع الكبير في الرقة في النصف الشمالي من الرافعة، إلى الشمال الغربي من باب "بغداد"، ويعد المدرسة المعمارية الأولى في العصر الذهبي، العربي الإسلامي، بدءاً من منتصف القرن الثاني الهجري، وقد أخذ طراز بنائه مسجد "تابين" في فارس، ومسجد "أحمد بن طولون" في مصر، ومسجد "القيروان" في "تونس"، إن ما تبقى من المسجد ما هو إلا جزء يسير من المسقط الحقيقي للمسجد فقد بقي منه السور الخارجي وواجهة الحرم والمئذنة وأطلال بعض العضاضات.

كما يرتبط تاريخ بناء الجامع العتيق بتاريخ بناء الرافقة في عصر أبي جعفر المنصور سنة **155هـ/772م**، وأنشأه من الطوب " اللبن "، ويُظن أنَّ الرشيد كان قد هدم أجزاءً كبيرةً من الجامع، وأعاد بناءه بالآجر شأنه في ذلك، شأن جميع المنشآت العمرانية التي تعود إلى زمن المنصور في بغداد، والبصرة، و الكوفة .[26] الصورة**(1)**

يعدّ المسجد من المباني العباسية التي تمَّ بناؤها في الفترة العباسية الأولى، فهي تخضع لسمات العمارة العباسية، حيث المساجد كانت تبنى بشكل قلاع أو حصون، أي

أنها تبنى منعزلة، والذي بقي منه اليوم ما هو إلا جزء من المسقط الحقيقي للمسجد، إذ بقي السور الخارجي وواجهة الحرم والمئذنة، وأطلال بعض العضادات.[27] الصورة **(2)**.

تجتمع فيه خصائص المسجد الرافدي (الكوفة) والمسجد الشامي (الأموي)، فالأبراج نصف الدائرية في زواياه يشبه مسجد الكوفة، أما حرمه المؤلف من ثلاثة مجازات (بلاطات)، فيشبه طراز جامع دمشق.[28]

اعتمد في نظام عمارة "الرافقة" المخطط الدائري لمدينة "دار السلام" في "بغداد"، وحدد موقع المسجد الجامع وقصر الإمارة وسط تلك الدائرة، وبني مسجد "المنصور" على غرار مسجد "دمشق"، ويتألف من صحن وحرم، وهو مستطيل عرضه **/93/م**، وهو طول جدار القبلة، وطوله **/108/م**، ويقوم الحرم في الجهة الجنوبية بعمق **30م**، وله سقف جملوني محمول على صفين من الأعمدة عددها **14** عموداً في كل صف، مشكلاً بذلك ثلاثة أجنحة عرضية، وهذا يدل على ان المسجد قد جمع في طرازه ما بين الفن المعماري الاسلامي الاموي (السوري) والفن المعماري الاسلامي العباسي (العراقي).[29]

أما واجهة الحرم المطلة على الصحن فهي عبارة عن قنطرة تتألف من أحد عشر عقد مدبب أبعادها الوسطية **3.56م** عرضاً، و**10.5م** ارتفاعاً، وهو محاط بجدارين من اللبن المغلف بالآجرّ المدعم بأبراج نصف دائرية، وتبلغ أبعاد الآجرَّة الواحدة **45×45×10/سم**.[30] الصورة **(3)**

بالرغم من الفجوات في الجدران وحالتها المتهدمة فلا يزال من السهل ان نرى أنّه كان هناك برج في كل زاوية، وأربعة أبراج أخرى في الجانب، أي ما مجموعه 20 برجا، ولا بد أنَّ سماكة الأبراج كانت حوالي 1.7 م، وسماكة السور فيه **/1،70/م**، وفي صحنه تنهض المئذنة مستقلة، ولقد أُنشئت في القرن الثاني عشر، وهي تشابه مآذن قلعة "جعبر" و"مسكنة" و"أبي هريرة".[31] الصورة **(4)**

يقوم حرمه في الجهة الجنوبية، وهو بعمق **/30،60/م**، أما واجهة الحرم المطلة على الصحن فهي عبارة عن قنطرة مؤلفة من أحد عشر عقد مدبب، ولقد أُنشِئت هذه الواجهة من الآجر المشوي وهي إذ تبدو موحدة الأقواس في الواجهة، فإنَّ هذه العقود تحاط في الداخل بصيوان بارز ذي قوس أو حنية في أعلاه أو شكل مفصص، وفي أسفل

العضادات ينفتح محراب صغير، ويختلف شكل العضادتين الجانبيتين تماماً عن غيرها[32]، لعله قد تم ترميم العضادتين في فترة زمنية لاحقة.

لقد أنشئ المسجد فيما عدا المئذنة في عصر المنصور، وذكره المقدسي وقال عنه "إنه جامع عجيب"، وإن مكانه في سوق الصاغة، وفي عصر نور الدين محمود بن زنكي تم ترميم المسجد وتم بناء المئذنة بإشراف أخيه مودود حاكم الرقة من**562-566هـ/1167-1171م.**[33]

تعد مئذنة المسجد الجامع في الرافقة إحدى المآذن الطينية التي تنتشر في منطقة الفرات الأوسط في سورية، وبتعبير أدق في ما بين دير الزور ومسكنة / بالس، فهناك واحدة في بالس / مسكنة، وثانية في منطقة أبي هريرة، وثالثة في قلعة جعبر، ورابعة في مدينة الرافقة / الرقة، وخامسة في دير الزور.[34]

إن مئذنة المسجد الجامع الباقية، فهي اسطوانة الشكل، تقع في باحته الداخلية، وتشبه إلى حد كبير مئذنة أبي هريرة ومئذنة قلعة جعبر، أحيطت المئذنة في أعلاها بشريط نباتي حجري يتضمن كتابات تشير إلى أن بانيهما هو نور الدين محمود، وعليها ألقابه، بنيت المئذنة بالآجر الذي يبلغ طوله نحو **23.5 سم**، أما ارتفاعها، فيبلغ نحو عشرين مترا[35]، وأقيمت فوق قاعدة حجرية كلسية منحوتة مربعة الشكل جددت عدة مرات كان آخرها عام **1986**. [36]

يسترعي الانتباه فيها رصف آجرها المتقن، حيث تبدو وكأنها عمود صنع بقالبٍ، وتقع على مقربة من زاوية الرواقين الشرقي والشمالي.[37] الصورة **(5)**

ارتبط مصير هذه المئذنة بمصير المسجد الجامع بالرقة، فكان العمران والخراب يتناوبان عليهما، ويعود بناء المسجد إلى عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، أي إلى زمن بناء مدينة الرافقة عام **155 هـ/ 772 م.**[38]

إذ أن مآذن هذا العصر اسطوانية الشكل، كما هي الحال عليه اليوم في جعبر، بينما شكل المئذنة في العصر العباسي الأول هي غالباً ما تكون حلزونية، كما هو الحال في مسجد " سامراء " في العراق، ومسجد " أحمد بن طولون " في مصر، إذ يرى الأثريون أنهما قد بُنيا على غِرار هذا المسجد لذا يمكن القول أن المئذنة الأصلية للمسجد قد زالت،

وان مكان وجودها في الزاوية الشمالية الغربية للرواقين الشمالي والغربي بجوار المئذنة الحالية [39] .الصورة **(6)**

تمت عملية التنقيب لهذا الجامع من قبل بعثات تنقيب عالمية، خلال الأعوام**1985- 1986- 1987م** ، وقد أكدَّت نتائج التنقيب على مواصفات كثيرة أهمها : تبلغ مساحة الصحن **7033.53م^2** ، وأبعاده من الجنوب إلى الشمال **75.70م** ومن الشرق إلى الغرب **92.90م**. أرضية الصحن مغطاة ببلاطات أجرية مشوية بمساحة **22×22سم**، ويحاط الصحن بأروقة من جهاته الثلاث عدا الجهة الجنوبية القبلية المتاخمة للحرم، ولقد أقيمت عضادات الأروقة على أساسات على شكل أخاديد متوازية لكل رواق، والأروقة مزدوجة أي مؤلفة من بلاطتين اصطفت من العضادات (الاكتاف) الحاملة لسقف الرواق، وقد حلت محل الأعمدة التي لم تكن مستعملة في المسجد، وهي تشابه تلك التي كانت قائمة في الحرم ويبلغ عرض الرواق الشمالي **11.75م** وعرض الرواق الشرقي **12م** وعرض الرواق الغربي **11.60م**، تبلغ مساحة الحرم **2842.75م^2** ،بطول **30.60م** وعرض **92.90م**. الصورة **(7)**

أرضه مفروشة بالآجر المشوي **22×22سم**، وتبين أن الآجر المكتشف يعود إلى عصر نور الدين، أما الأرضية الأصلية فهي منخفضة عن المكتشفة بـ **25سم**، وإلى طرفي الحرم تم اكتشاف دكتين واحدة في الركن الشرقي للحرم بمواجهة امتداد الرواق الشرقي للجامع، وهي تتصل بالرواق الشرقي من خلال قنطرتي هذا الرواق المتصلتين بالحرم، ويبلغ ارتفاع هذه الدكة **60سم** وعرضها **12.8م** ولها مصعدان صغيران من أرض الحرم مؤلفان من ثلاث درجات[40].

لقد توالت أعمال التجديد والترميم على هذا المسجد ومئذنته؛ إلا أنها أهمها كان ذلك الذي تم في عهد نور الدين محمود الزنكي عام **561 هـ / 1159 م** بإشراف أخيه "مودود" حاكم "الرقة" /الرافقة، وأضاف له مئذنته الشامخة التي تحدَّت الخراب الذي حل في المدينة خلال فترات متعاقبة[40]، وهذا ما تؤيده لوحة كتابية بالخط النسخي وتوجد في منتصف واجهة ما تبقى من الأقواس الجنوبية. وتقول : "الزاهد المجاهد المظفر المنصور

نور الدين ركن الإسلام والمسلمين أبو القاسم محمود بن أتابك بن أق سنقر ناصر أمير المؤمنين. وذلك في شهور سنة إحدى وستين وخمسمائة".[41]

الأصول المعمارية للمسجد الجامع في الرافقة :

يقع المسجد على الخط الفاصل بين سورية وبلاد ما بين النهرين، يقدم مثالا هاما على مزج الطرازيين فالمخطط المربع تقريبا للمسجد، والصحن والجدران المحصنة والعدد الكبير من المداخل بدلا من المداخل الثلاثة المحورية المعتادة في سورية كلها من طراز بلاد ما بين النهرين وكذلك مزج مواد البناء الاجر الطيني للجدران والاجر المشوي للأروقة – الموجود في الكنائس النسطورية في الحيرة ولكن الحرم الثلاثي الاروقة والسقوف الجمالونية المتوازية التي تغطيها (بعكس السقوف المسطحة في العراق هي خصائص سورية رأيناها في دمشق وقصر الحير[42]

في واجهة الحرم، وعلى العقد الأوسط فيها يوجد آية قرآنية مكتوبة بالخط الكوفي، مؤلفة من ثمانية أسطر، منقوشة على الأجر المشوي، فوق عقد عباسي مدبب، الذي يمثل بوابة الحرم . الصورة **(8)**

يحتوي المسجد الجامع على عقود عباسية مدببة مختلفة، فمنها ثنائي المركز، كما في الصورة **(9)** حيث يختلف هذا العقد عن الشكل الأهليجي السائد في العمارة الساسانية القديمة، ومنها رباعية المركز، حيث يظهر لدينا عقد مدبب يتألف من عقدين ملتصقين مختلفين بالحجم متشابهين بالشكل حيث تبلغ سماكة الأول نصف المتر والثاني نصف المتر فتكون سماكة العقد بالكامل متر من الداخل. الصورة**(10)** و **(11)**

تتألف القنطرة التي تجسد واجهة الحرم في المسجد الرقة/ الرافقة، من عدد من العقود العباسية المتباينة في الأشكال ومنها العقود التالية: العقد نصف الدائري حدوة الفرس، والعقد العباسي رباعي المركز، والعقد ثلاثي الفصوص، وجميع هذه العقود من الخارج لها العقد المدبب العباسي نفسه، اما من الداخل فكل عقد يختلق في الشكل عن المجاورة . الصورة **(12)**

إن البرج المستدير في سور المسجد، نصف دائري – حيث المساجد تبنى كأنها حصن منيع منعزل– هو مبنيٌّ من اللبن المجفف تحت أشعة الشمس، والمرصوف بدقة

عالية وكأنه بُنِيَ ضمن قالب، ومن ثم طلي بالآجر المشوي من الداخل والخارج. الصورة(**13**)

الملاحظ أنَّ الأبراج نصف دائرية في الزوايا تكون أكبر قطر من الأبراج التي توجد في ضلع السور، حيث تمثل الركيزة الأساسية التي يرتكز عليها السور، وهي أيضا مبنية من اللبن المجفف تحت اشعة الشمس، ومطلي بالآجر المشوي. الصورة(**14**)

المسقط الأفقي للمسجد مستطيل وهو من السمات الأساسية في العمارة العباسية، التي بنية على أساسه اغلب المساجد في العصر العباسي، وسوره مزود بالأبراج الدائرية في كل زاوية وبأربعة أبراج في كل ضلع، بين البرجين الكبيرين المتواجدين في الزوايا، وهو محافظ على شكله وبنيته, وفي وسط المسجد نجد القنطرة المؤلفة من أحد عشر عقد، والتي يمكن الاستفادة من ارتفاعها في تحديد ارتفاع المسجد سابقا، حيث كانت تمثل واجه الحرم للمسجد. الصورة (**15**)

بالإضافة الى السور المحيط بالمسجد والقنطرة التي تتوسط المسجد، توجد المئذنة التي حافظت على بنيتها حتى وقتنا الحالي، فالمئذنة الموجودة في المسجد حاليا ذات شكل اسطواني، ومبنية من اللبن والمطلية بالأجر، ومن خلال السمات العامة للعمارة في العصر العباسي المبكر وجدنا ان شكل المئذنة التي بنيت في تلك الفترة حلزونية ودرجها خارجي، كما في مئذنة سامراء، اما هذه المئذنة فهي اسطوانية ودرجها من الداخل، وهي تقوم على دكة من الحجر. الصورة (**16**) و (**17**).

خصائص العمارة العباسية في سوريا:

إن لبلاد الرافدين تقاليد في العمارة فرضها الإقليم، ومواد البناء التقليدية، وكان لهذين العاملين الأثر الأكبر في طبع العمائر العباسية بطابع يميزها عن العمائر الاموية أضافة لذلك فإن الحضارة العربية وما رسخته فيها الثقافة الإسلامية كان لها الأثر الكبير في تطوير الفنون الرافدية والفارسية وفي خلق أسلوب فني جديد مطبوع بطابع الحضارة العربية عرف بالفن العباسي الذي كانت له خصائص عامة نجدها في سائر نتاج الدولة الإسلامية في كل أقطارها في العراق وفارس وفي الشام ومصر وأفريقيا لا سيما في العصر العباسي الأول.[43]

الذي يبدأ من منتصف القرن الثامن ويمتد الى أواخر القرن العاشر الفترة التي كانت الدولة خلالها محافظة على وحدتها وسمات هذه الحضارة نلخصها في النواحي التالية:

1- من حيث مواد البناء :

كان يغلب على العمائر استعمال اللبن والأجر الأول في الاسوار والجدران والثاني في العقود والقباب وكسوة الجدران الخارجية.

2- من حيث الهندسة والتخطيط والعناصر المعمارية:

شاع في المباني استخدام الأواوين ذات العقود والسقوف المعقودة بالقباء والقباب، والأقواس المدببة (المنكسرة) في وسطها من النوع الذي اصطلح على تسميته بالقوس الفارسي, واستعمل المخطط المربع في المساجد والأروقة المزدوجة المحيطة بصحون (فناءات المساجد) .

ظهرت المآذن المخروطية ذات الأدراج الحلزونية من الخارج ودخل مظهر الحصون على الجوامع الكبيرة فزودت أسوارها بالأبراج الدائرية ولكن دون أن يكون لهذه الأبراج أية قيمة دفاعية فهي فقط من أجل الدعم والمظهر الفني[44] , ويعتبر المسجد من المباني العباسية التي تمَّ بناؤها في الفترة العباسية الأولى، فهي تخضع لسمات العمارة العباسية، حيث المساجد كانت تبنى بشكل قلاع أو حصون، أي أنها بنيت منعزلة.

من حيث العناصر الزخرفية:

كانت النقوش الجصية هي العنصر السائد في زخرفة المباني، ومواضيعها نباتية وهندسية وحيوانية، ويدخل في عداد الزخارف الهندسية الأسلوب الذي على تغيير أوضاع ألواح الاجر، بحيث تحدث اشكالا هندسية زخرفية، وهذه سمة من سمات الفن الساساني، واستخدام الخزف الملون كذلك كعنصر زخرفي في كسوة الجدران، نجد نموذجا له في محراب جامع القيروان، وقد جلبت ألواحه من العراق في عهد ابن الاغلب (القرن الثالث الهجري)، وكان التصوير من العناصر الزخرفية الهامة عثر على نماذج لصور الأشخاص والحيوانات في قصر الجوسق الخاقاني في سامراء (شيده المعتصم سنة **836م**)، وكانت السقوف الخشبية تزين بالنقوش والاصباغ الملونة.[45]

الخاتمة:

انَّ العمارة في مدينة الرافقة تجسد العمارة العباسية المبكرة التي انتشرت سماتها من بعد ذلك الى كافة أرجاء المعمورة التي كانت تخضع للحكم العربي الاسلامي العباسي، حيث ظهر العقد العباسي الذي يعتبر السمة الرئيسية لهذه العمارة، والذي انتشر في فتحات البوابات، وفي عقود القناطر، وفي جدران المساجد والقصور.

من أهم منجزات هذه الحضارة في مدينة الرافقة المسجد الجامع ، الذي يجسد العمارة الدينية العباسية في سوريا، وهو المسجد الذي يقع على الخط الفاصل بين سورية وبلاد ما بين النهرين، والذي يقدم مثالا هاما على مزج الطرازيين فالمخطط المربع تقريبا للمسجد، والصحن والجدران المحصنة والعدد الكبير من المداخل بدلا من المداخل الثلاثة المحورية المعتادة في سورية كلها من طراز بلاد ما بين النهرين وكذلك مزج مواد البناء الاجر الطيني للجدران والاجر المشوي للأروقة، بينما الحرم الثلاثي الاروقة والسقوف الجمالونية المتوازية التي تغطيها بعكس السقوف المسطحة في العراق هي خصائص سورية.

ازدهرت الرافقة في العصر العباسي عامة، وفي عهد هارون الرشيد خاصة، حيث أصبحت عاصمة الرشيد ومنتزهه ومصيفه، وقضى هارون الرشيد ما يقارب عن اثني عشر عاما من فترة حكمه في مدينة الرافقة.

إنَّ للمدينة الرافقة أهمية كبيرة وذلك لعدة أسباب منها موقعها الجغرافي، حيث تعدّ بوابة الغرب الى الشرق وبوابة الجنوب الى الشمال حيث كانت محطة من محطات طريق الحرير التجاري، ومساحتها الزراعية الشاسعة التي تعتمد على نهر الفرات، فهي سلة الجزيرة الغذائية التي يعتمد عليها.

ملحق الصور:

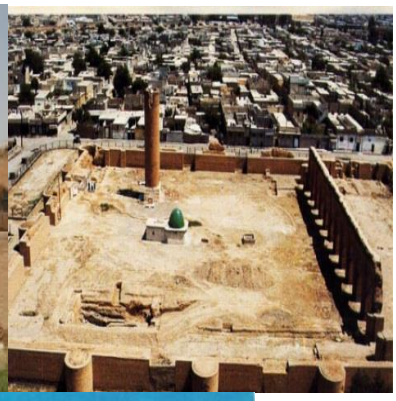

الصورة (1) مسجد الجامع الصورة (2) واجهة الحرم في جامع العتيق.

الصورة (3) القنطرة التي تشكل واجهة الحرم

الصورة (4) سور المسجد. الصورة (5) مؤذنة الجامع الاسطواني

الصورة (6) الاروقة المزدوجة في صحن المسجد

الصورة (7) اية قرآنية على مدخل الحرم. الصورة (8) العقد العباسي. الصورة (9) العقد العباسي يرسم من اربع مراكز.

الصورة (10) عقود القنطرة. الصورة (11) أبراج المسجد ومادة بناءها

الصورة (12) الأبراج الكبيرة في زوايا المسجد.

الصورة (13) المسجد من الجهة القبلية الصورة (14) درج المئذنة من الداخل . الصورة (15) مئذنة الجامع العتيق

الهوامش الختامية:

1 حسن الباشا: العمارة والاثار والفنون الإسلامية، أوراق شرقية، بيروت، **ط1، 1999م، ج1، ص242.**

2عبد القادر ريحاوي: العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، منشورات وزارة الثقافة السورية, دار البشائر، دمشق، **ط2، 1979م، ص97.**

3حسن الباشا: مرجع سابق، **ص243.**

4عبد القادر ريحاوي: مرجع سابق، **ص 98.**

5حسن الباشا: مرجع سابق، **ص248.**

6 فاطمة جود الله: سوريا نبع الحضارة، دار الحصاد، دمشق، **ط1، 1999، ص533.**

7 المقدسي (محمد محمد بن احمد المقدسي ، **ت 380هـ**): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، **ط1، 1980م، ص455**؛ ابن الاثير (أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، **ت 630هـ**): الكامل في التاريخ، تح عادل احمد الرفاعي، دار صادر، بيروت، **ط1، 8ج،1996م، ج4،ص150.**

8 الدمشقي(ابن ناصر الدين شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد القيسي، **ت:842هـ**): توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، **1993م، ط1، ج4، ص92** ؛الحنبلي(عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري، **ت: 1089هـ**): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبد القادر الأرنؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار بن كثير، دمشق، **1986م، ط1، ج1، ص328.**

9الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، **ت: 866هـ**): صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: لافي بروفنصال، دار الجيل، بيروت، 1988م، **ط2، ج1، ص263.**

10 فاطمة جود الله : مرجع سابق، **ص531.**

11 فاطمة : مرجع نفسه، **ص531.**

12 الفسوي(أبو يوسف يعقوب بن سفيان، **ت: 277هـ**): المعرفة والتاريخ، تح: خليل المنصور، دار الكتب العلمية ،بيروت ، **1999م، ج1، ص23.**

13 اليعقوبي: مصدر سابق، **ج2، ص358.**

14 اليعقوبي: مصدر نفسه، **ج2، ص358.**

15الطبري: مصدر سابق، ج4، ص507؛ الذهبي(شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، **ت: 748هـ)**: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام تدمرى، دار الكتاب العربي، بيروت،**1987م،ط1** ، **ج9، ص33.**

16 فاطمة جود الله: مرجع سابق، **ص532.**

17 شريف يوسف: المدخل لتاريخ العمارة الإسلامية وتطورها، دار الحرية، بغداد، ط1، 1995م، ص90.

18 اليعقوبي: مصدر سابق، **ج1، ص2.**

19 شريف يوسف: مرجع سابق، **ص90.**

20 فاطمة جود الله: مرجع سابق، **ص532.**

21ابن عبد المنعم الحميري (محمد بن محمد بن عبدالله بن عبد المنعم بن عبد النور أبو عبد الله الحميري، **ت900هـ)**: الروض المعطار في اخبار الأقطار، دار صادر، بيروت، **ط1، 1986م، ج2، ص(250).**

22فاطمة جود الله: مرجع سابق، **ص532.**

23فاطمة جود الله: مرجع نفسه: **ص532.**

24فاطمة جود الله: مرجع نفسه: **ص533.**

25فاطمة جود الله: مرجع نفسه، **ص533.**

26فاطمة جود الله: مرجع سابق ، **ص536.**

27مجموعة من الباحثين، الرقة درة الفرات، دمشق، **1992، ص 317**، شوقي شعث: حلب، مجلة التاريخ العربي، **د.ت، ج 1، ص5395**؛ ك.كريزويل: الاثار الإسلامية الأولى، تر: عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، **ط1، 1996م، ص252.**

28قاسم طوير، الحوليات الأثرية العربية السورية، **م 34، 1984، ص.60**؛ شوقي شعث: مجلة التاريخ ، **ج1، ص 5394.**

29شريف يوسف: المدخل إلى تاريخ العمارة، **ص91.**

30شريف يوسف: مرجع نفسه : **ص(90).**

31عبد القادر ريحاوي: العمارة العربية الاسلامية، **ص103.**

32 ك.كريزويل: الآثار الإسلامية الأولى، **ص252.**

33شريف يوسف: المدخل الى تاريخ العمارة، **ص90.**

34شوقي شعث: مرجع سابق، **ج 1، ص 5373.**

35مجموعة من الباحثين، الرقة درة الفرات، **ص.314.**

36مجموعة من الباحثين: مرجع نفسه ، **ص315**؛ شوقي شعث: مرجع سابق، **ج1، ص5393.**

37ك. كريزويل: مرجع سابق، **ص254.**

38قاسم طوير، مرجع سابق ، **ص60**؛ مجموعة باحثين: مرجع سابق، **ص313.**

39فاطمة جود الله: سورية نبع الحضارة ، **ص536.**

40شريف يوسف: مرجع سابق، **ص91.**

41مجموعة باحثين: مرجع سابق، **ص.313.**

42عبد القادر ريحاوي: مرجع سابق، **ص103**؛ ك.كريزويل: مرجع سابق، **ص252.**

43عبد القادر ريحاوي: مرجع سابق، **ص97.**

44عبد القادر ريحاوي: مرجع سابق، **ص 98.**

45حسن الباشا: مرجع سابق، **ص248.**

The Abbasid Religious Architecture in Syria "The Model of the Whole Mosque in Rafikah"

Mesopotamia has traditions in the architecture imposed by the region، and traditional building materials، and these workers had the greatest impact in the printing of the Abbasid buildings characterizes them from the Umayyad buildings، it was embodied in the city of Rafikah where the Caliph "Abu Jaafar al-Mansur" began in **155** AH / Of the Abbasid state near "Raqqa"، was named "Rafikah"، and Abu Jaafar directed his son Mahdi to build.

As was taken by Harun al-Rashid، the capital and the seat of his rule between the years **796 - 808** AD، and the prosperity of tenderness in the era of rational، an extension of the prosperity established by the Mansour and the political stability that accompanied during the rule of Mahdi and Hadi، and took the good of Al-Rigga resort، and ordered the establishment of all necessary means of comfort.

The Mosque of Al-Mansour، or the Old Mosque، which embodies the religious architecture of Syria، is located in the heart of Al-Raqqa in the northern half of Al-Rafa'a، north-west of Bab Baghdad. It is the first

architectural school in the Abbasid golden age، The second type of building was built in the Nabien Mosque in Fares، Ahmed Ibn Tulun Mosque in Egypt and the Kairouan Mosque in Tunis. The remaining part of the mosque is only a small part of the real estate of the mosque. Exterior and the façade of the Haram and the minaret and the ruins of some of the buildings.

The mosque is considered one of the Abbasid buildings that was built in the first Abbasid period. It is subject to the characteristics of the Abbasid architecture، where the mosques were built in castles or fortresses، ie they are built in isolation، and the characteristics of the Rafidi Mosque and the Shami Mosque In its corners resembling the mosque of Kufa، and the sanctuary of the author of three massacres (tiles)، similar to the model of the Damascus Mosque.

The façade of the courtyard overlooking the courtyard is a gantry consisting of eleven pointed nodes with a median dimensions of **3.56 m**، and **10.5 m** high. It is surrounded by two walls of milk coated with semi-circular tiles. This arch consists of a number of different Abbasid contracts in shapes These include the following contracts: the semi-circular contract of the Persians، the Abbasid tetrahedron، and the three-lobed contract. All these contracts from the outside have the same Abbasid point، either inside، each contract forms in the shape of the adjacent one.

As for the wall of the mosque in Rafikah، despite the gaps in the walls and its dilapidated condition، it contains a tower in each corner and four other towers on the side، a total of **20** towers. The thickness of the towers was about **1.7** meters، M.

The Minaret of the Mosque in Rafikah is considered one of the minarets in the Middle Euphrates region of Syria. There are one in Balas / Meskana، one in Abu Hurayrah، one in Ja'far، one in Rafiqah and one in Deir Al-Zour.

The minaret of the remaining mosque is a cylindrical shape، located in its interior courtyard. It is very similar to the minaret of Abu Hurayrah and the minaret of Qal'at Jaaber. The minaret was surrounded by a stone bar with inscriptions indicating that their builder was Nur al-Din Mahmud. Which is about **23.5** cm long، and its height is about twenty meters، and was built on the base of a stone carved square shaped.

The characteristics of the religious architecture in the city of Rafikah represented by the Umayyad Mosque، on the one hand، such as the Gaelic ceilings of the mosque، were influenced by the Sassanian architecture of Persia، especially in the fortification and defensive methods،

especially the fence with defensive towers. The Umayyad civilization in Damascus and the Sassanid civilization in the East، due to the intermediate position between the two civilizations.